السفر ...

قصة بقلم عبد الحكيم قاسم

لم تنم ، ظلت طول الليل تتقلب وتنظر للعيال ، وحينما صاح اول ديك هبت واقفة ، رفعت شريط اللمبة واخذتها من على المسمار ثم خرجت الى وسط الدار .

السلة على المصطبة فيها البتاو الذي خبزته مساء الامس ، فلا بد للمسافر من الزاد ، وخبز البنادر مغشوش .

دست يدها في طاقة في الجدار واخرجت المنديل المعقود على النقود ، في البندر النقود هي كل شيء .. لو ضاعت ضعت .

قبضت على المنديل ووقفت محتارة وظلها يهتز على الجدار ، واخيرا احكمت وثاقه في تكة سروالها ، هنا سيكون في امان .

حاملة اللمبة في يدها ، دخلت مرة اخرى على العيال ، مبعثرين على الحصير :

ـ يا ولادي .. !!

اخذت جلبابها الاسود من على وتد في الحنط ، والبنت الكبيرة احست بها فهبت قاعدة على الحصير ، عيناها يقظتان كعين حدأة :

ـ أمه ...

ـ انتي صحيتي يا حبيبتي ... ناوليني شبشبي ، واوعي اخواتك يصحو ، مانيش عاوزه عياط ورايا وانا ماشية ، حاخد اخوكي الصغير بس .. ، ما تصحهش .. هشيله نايم ما هو كده .

ـ اشيله انا يا مه لحد المحطة .. ؟

ـ لا يا حبيبتي .. ، خدي بالك انتي من اخواتك لحد ما آجي ...

كانت النجوم لا تزال لامعة في السماء ، ولكن لا بد من التبكير الى المحطة وانتظار القطار فهو يمرق ولا يعود مرة اخرى الا بعد ان يتسرب النهار .

جلست على الرصيف والولد في حجرها تغطيه بطرف ثوبها ، والبرد ينفذ الى جسمها من رمل الرصيف ، .. صحا الولد وفتح عينيه ونظر حواليه ، لكن يبدو انه لم يفهم شيئا فقد عاد واغلق عينيه وراح في النوم على حجر امه .

بدأ ناس يتقاطرون على الرصيف من كل البلاد يقفون متباعدين بردانين وناظر المحطة خرج من الكشك يرتدي بلطو اسود ضخم ، حالما رأته نهضت حاملة ابنها على كتفها :

ـ اقطع لي ورقة والنبي يا خويا ..

ـ لسه بدري يا ست

ـ والنبي يا خويا ينصفك ، استنى اللي ما يستنكش ، .. اقطع لي ورقة ...

فتحت الكوة في جنب الكشك ، وفكت هي وثاق المنديل تحت لفائف الثياب ، واخذت الورقة .. الان عليها ان تحافظ عليها مثلما تحافظ على النقود واكثر ، وضعتها في المنديل وصرت عليها ثم اعادت المنديل الى مكانه الامين .

وعادت مرة اخرى لتتربع على الرصيف ، .. وسرحت ابصارها تسير مع القضبان الحديدية التي تمتد بعيد .. بعيد جدا الى حيث يضيق ما بينها ثم تختفي في الضباب .. والقطار لما يأت .

صحا الولد ، وهش قليلا ثم فرح لما عرف انه مسافر ، وظل يلعب ويتقافز حول امه كالقرد ، ثم رجت كتلة الرصيف ضجة القطار ، ثم مرق من امامهم اسود هائجا على القضبان ، جرت تدفع ابنها امامها والسلة في يدها ، وازاح رجل قفته من على كرسي فجلست هي .

كان القطار مزدحما ودافئا ، فاليوم سوق وكل الناس مسافرون ، نسوان ورجال وقفف وسلال وطسوت مليئة بالزبد والجبن ، والعربة مليئة بالضجيج ودخان السجائر اللف ، .. وهي جلست وحيدة خائفة من هذا المولد .

من بعيد جاء الكمساري يجتاح العربة ، ينفث الشتائم والصرخات ويلكم الاكتاف ويأخذ الناس من اطواق الثياب ، مانت في جلدها قبل ان يصلها . تحسست كيان المنديل الناتيء وقبضت عليه وشددت قبضتها ، صرخ الكمساري ضاربا مسند المقعد بالمقراض .

ـ تذاكر .

ارتعشت يدها وعجزت كخرقة والكمساري يصرخ ويضرب المقعد بالمقراض وهي عاجزة تماما عن الوصول للمنديل تحت طيات الثياب فاخرج الكمساري دفتر القسائم :

ـ والله لاغرمك يا بنت ثلاثين كلب ... ايدك على بريزه

ـ والنبي يا خويا ، ان كنت مؤمن تصدق ، انا قطعت ، الورقة معايا ، طول بالك عليا شوية وانا حجيبها لك ...

ـ انا يهودي وكافر وابن كلب ومش عاتقك عن الغرامة .

والولد ابنها انفتح في صراخ مذعور ، واولاد الحلال تدخلوا ، صياح وكلام وايمان تجمد الماء ، والكمساري يصرخ كالكلب المسعور ، والقطار يجري في ضجة مهولة ، وهي اخضر وجهها من الرعب وارتمت يداها في حجرها كعيس ملح لا تستطيع تحريكهما .

بينما كانت التذكرة راقدة في المنديل بجوار عدة ورقات نقدية مهراة وعدة قروش نحاسية ، اخذها الكمساري ومزقها :

ـ عشان تتعلم تمسك تذكرتها في ايديها .

واخذ عشرة قروش واعطاها قسيمة بيضاء امسكتها في يدها لم تفلتها .

ومع الجموع نزلت وسارت حيث يسيرون وعند اول الشارع بانت قبة السيد البدوي ، .. يا دليل الغريب يا سيد ، .. الناس الذين اختارهم الله يرون هذه القبة من اخر الدنيا ، والناس تأتي على نورها من كل البلاد ـ يا زين ما قصدوا لما قصدوك يا بو فراج ... سيدك السيد آهه يا ولد .

الزحام شديد على الباب ، والمشايخ بمقارع يخبطون الناس يستحثونهم على الاسراع ، ولكنها خبطات هينة مبروكة ... ، صارت جزء من الكتلة البشرية التي تتحرك ببطء رافعة سلتها وابنها الى اعلى وفمها مشغول بالدعوات ،

الباب الاسمر الثقيل مفتوح على اخره ، رأت السيد البدوي ... كيان رائع من النحاس الاصفر ، نجف باهر ، ورد احمر ، ريح عاطرة تملأ المكان ، ... وهفت اشواقها ، اشواق قديمة لم ترو ابدا ، طفرت دموعها وشهقت بالدعوات .

ـ جيت لك حافية وراس عريانة ، ما ليش غيرك يا سيد ...

وامرأة زغردت ، والزغرودة شجت قلبها فضحكت والدموع مالحة في فمها ... ، والكتلة البشرية تعصرها وتدخل بها الى المقام وتدور بها حول الضريح ، بذلت جهدا كبيرا حتى تفلتت ومدت يدها وامسكت بالنحاس اللامع البارد ، مسحته بيدها ومسحت بها وجه ابنها ووجهها

وصدرها ، وأكتاف الناس واذرعهم تدفعها وتلكزها في جسمها ، لكنها غير عابئة ، ومن بين الايدي واحدة مدربة عارفة حاسمة تحسست مسرعة بطنها ثم امسكت بعنف ما بينهما ...

احست بقهر لا حد له امسكت بشبك النحاس واسندت رأسها على ذراعها ونشجت :

ـ آه ياني

ورجل عجوز له عمامة ولحية قال « لا حول ولا قوة الا بالله » والناس من ورائها دفعوها دفعوها .

ـ يا لله يا ستي ، اسعي وصلي عالنبي ، اللي زار يخفف ، خلي غيرك يزور .

وسارت مع الزحام .

كان الولد يبرطع فرحانا على البلاط اللامع ، وجلست هي على الحصير والسلة بجوارها ... مكتئبة ، لا يزال الالم في جسمها والقهر في قلبها ، سرحت قليلا ثم قالت بصوت عال :

ـ ولاد الحرام كتير

ونادت على الولد واعطته لقمة بتاو ، وهي لم تفطر ولكنها نظرت للزاد وردته الى السلة زاهدة .

ومن بعيد رأت لمة من الناس ، قامت لترى ، وكان شيخا جالسا على فراء خروف وامامه وابور جاز مشتعل واحقان وادوات وعدد واشياء اخرى كثيرة ، وحوله حلقات من الرجال والنسوان والعيال ، جلست هي وسلتها وابنها على الحصير ، الشيخ وجهه ابيض ، يلبس عمامة خضراء ، عيناه مسبلتان لا ينظر الا الى يديه المشغولتين ، وعلى نار الوابور قطعة مستديرة من قشرة جوز الهند ، تلقفها باصابعه وقلبها بسرعة ثم مرق بها على لسانه ووضعها على ظهر البنت الابيض العاري ، وازت القشرة في لحم البنت وصارت البقعة في لون البن ، وصاح الناس يهللون :

ـ بالشفا .. بالشفا انشاء الله

والام الباكية كانت ممسكة بارجل ابنتها والاب احكم ذراعه حول رقبتها .

ومالت هي على جارها تعرض عليه يد ابنها وفي ظهرها عند المفصل نتوء بارز .

ـ يعرف يداويها يا خويا ؟

ـ ايده مبروكه ياستي

ـ ياخد اد ايه

ـ انتي وجودك عليه يا ستي ، وان ما جدتي اجره على الله

نظرت للشيخ مرة اخرى ، عيونه مسبلة ، لا يتكلم بينما يداه الصغيرتان تعملان ، عرضت عليه يد ابنها ، امسك يد الولد ، نظر اليها ثم تركها واخذ ابرة طويلة وغمسها في زجاجة بها سائل اسود ، ورجل من الجالسين قال لها :

ـ امسكي ايد ابنك يا ستي .

وامسكت يد ابنها والشيخ يغمس الابرة في السائل الاسود ويشك النتوء شكات سريعة جدا والولد يصرخ وهي قلبها مأخوذ ولكنها فرحانة لان ابنها سيبرأ .

خرجت من رطوبة الجامع وعتمته الى الشارع ، عشيت عيناها ، زحام هائل من الضوء والناس يربكانها ، على جانبي الشارع دكاكين وعربات محملة بكل انواع البضائع والبائعون يصرخون وينادون وعلى وجوههم الشر وهي تمشي محاذرة في وسط الشارع تماما تتلفت خائفة يمينا وشمالا ، رجل يسير حاملا ترابيع يعرضها على المارة حمراء وصفراء وصفراء وخضراء ومحلاة بالترتر والبرق وينادي :

ـ الحرير الطبيعي ، على كل لون يا صبايا ، سبعة صاغ الواحدة ، المكسب على الله .

طار لبها وراء الترابيع ، ما احلى ما تكون على رأس ابنتها ، اشترت واحدة واعطت الرجل سبعة قروش اخذها ومشى ، وقفت تتأمل التربيعة فوجدتها مثقوبة ، جرت لحقت بالرجل :

ـ التربيعة مثقوبة يا خويا .

لكزها الرجل بكوعه وسبها وتركها ومشى ينادي على الترابيع ...

وقفت مبهوتة تتأمل التربيعة المثقوبة وابنها خائف يتشبث بجلبابها ، وضحك لها رجل يجلس على كرسي امام عربة محملة بالحلوى البيضاء الملونة بالاحمر ينش عنها بمنشة من الخوص ... رجل عجوز وجهه طيب .

ـ معلهش يا بنتي عوضك على الله .

مصمصت شفتيها وتنهدت اسيانة ، وبصرت ابنها متعلق بكومة الحلوى الملونة على العربة ، قالت للرجل وهي مترددة خائفة :

ـ عاوزة بخمسة ساغ يا عم

والرجل عرف خوفها وضحك ، ثم فرش ورقة في الكفة ووزن لها وزنة طيبة ، وفرحت هي بالحلوى الكثيرة وفردت له منديلها فافرغ عليه ملء الكفة ، واعطته القروش الخمسة وهو اعطى الولد قطعة كبيرة ملونة .

على الرصيف في الظل جلست ، ومدت يدها في السلة واخرجت لقمة بتاو ، كانت جائعة لم تفطر ولكنها زاهدة ، اخذت تمضغ اللقمة دون ان تسيغها ، والولد يتقافزحولها يلعب بصفارة اشترتها له بقرش وفي يده قطعة الحلوى يلعقها ويقضم منها .

اخذت تتأمل المارة والبائعين ، المدينة مزدحمة بالناس الذين لا يتكلمون ولا يسلمون ، ولكن فيها « السيد البدوي » مدد يا ابو فراج » ... وافتكرت وملأها القهر ، ورغبت بشدة في ان تعود الى الدار والقطار العائد موعده اصفرار الشمس .

وكان القطار مزدحما بالايبين ، والناس متعبون ضجرون والكمساري الجهم خبط مسند المقعد بمقراضه ، ومدت له يدا مرتعشة بالتذكرة فقرضها واعطاها لها .

كانت تعبانة مكروبة .. وحينما نزلت على رصيف محطتهم كانت الشمس قد غابت وحمرة خفيفة تلون شواش الشجر ، والطريق الى البلد طويل حملت ابنها الى صدرها وسلتها في يدها وسارت .

وبهدوء دفعت الباب ، كان العيال متحلقين حول اختهم على الحصير والبنت في وسطهم كالدجاجة الام يقظة حازمة ، وحينما رأوا امهم هاجوا وزاطوا وهجموا عليها يعانقونها وعلى السلة يفرغون محتوياتها ، وامتلأت ايديهم بالحلوى وفرحت البت بالتربيعة ولم تأبه للثقب الذي يعيبها وفي وسط ضجة العيال خلعت جلبابها وشالها واسندت ظهرها للحائط ومددت رجليها على الحصير ، .. كانت تعبة وحزينة ولكنها كانت تبتسم لفرحة العيال ..

القاهرة

عبد الحكيم محمد قاسم

منشورات « دار الاداب »

تطلب في القاهرة

من

مكتبة مدبولي

٦ ميدان طلعت حرب

(سليمان باشا سابقا)